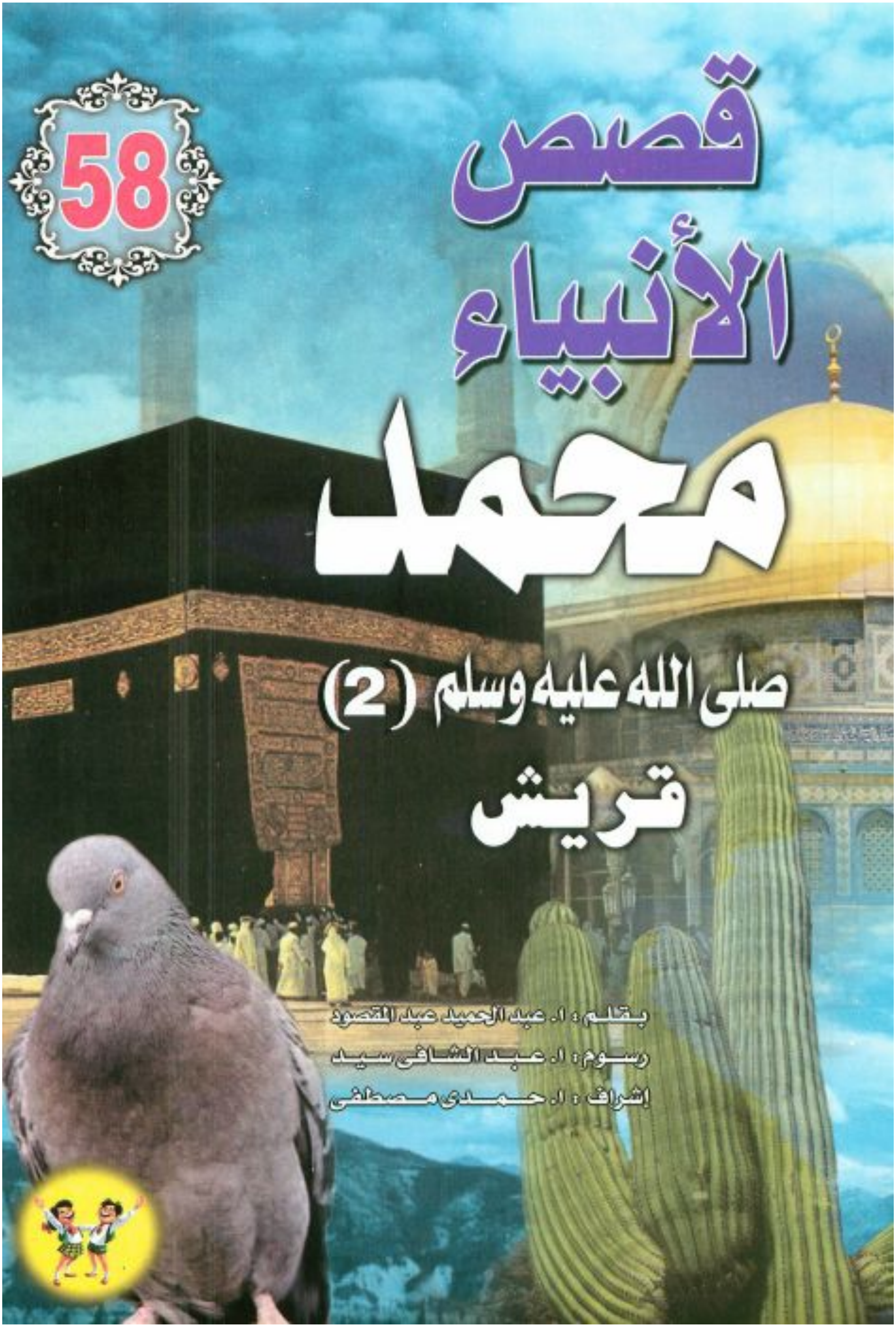


58

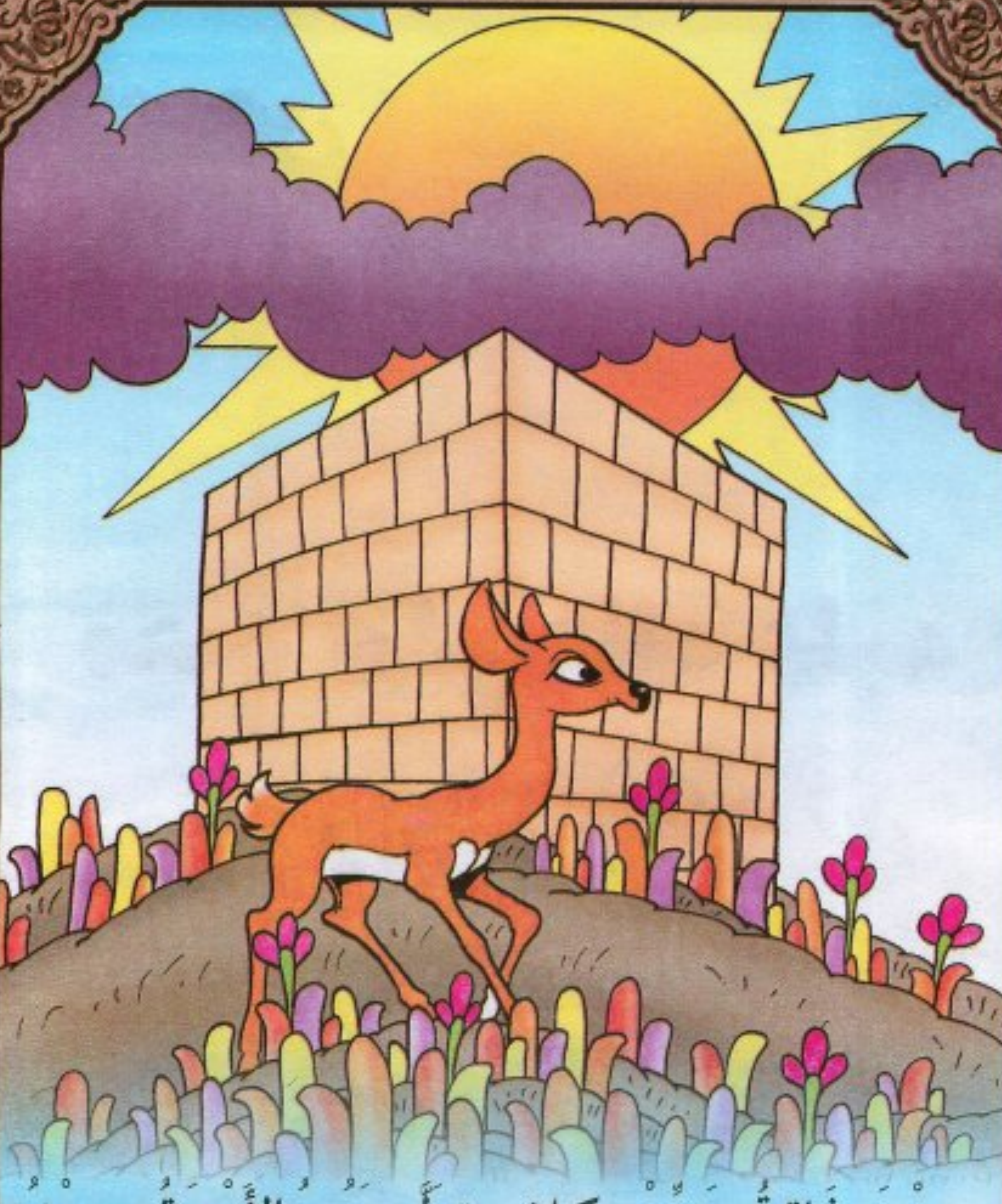
قصص الأنبياء

محمد

صلى الله عليه وسلم (2)

قريش

بقلم : ا. عبد الحميد عبد المقصود
رسوم : ا. عبد الشافى سيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى



بعْدَ وفَاة قُصَيٍّ بنِ كلاب تولَّى بنُوهُ الأَرْبَعَةُ : عبْدُ الدَّارِ ، وعَبْدُ مَنَاف ، وعبْدُ الْعُزَّى ، وعبدٌ أمْرَ قُرَيْشٍ وأَمْرَ قَومِهم منْ بعْده ، وكـانَ قُصَيٌّ قـدْ خَصَّ وَلَدَهُ الأَكْبَرَ عبْدَ الدَّارِ بأَمْرِ الْبَيْتِ الحْرامِ ،

فَجَعَلَ الحِجَابَةَ واللِّواءَ والسِّقَايَةَ والرِّفَادَةَ فى يَدِه ؛ ليَجْعَلَ له شَرَفًا مثْلَ شَرَف إخوَته الثَّلاثَة فى قَوْمِهِمْ .. وقدْ أَقَرَّتْهُ قُرَيْشٌ على ذلكَ ، وأَقَرَّتْ إخْوَته على القِيامِ بأَمْرِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَبيهِمْ قُصَىٍّ ..

ولَمْ يكُنْ بينَ بَنى قُصَىٍّ وبَينَ قُرَيْشٍ اخْتِلافٌ ولا تَنَازُعٌ ، وتوارَثَ بنو عَبْدِ الدَّارِ ولايَةَ البَيْتِ بَعْدَ أَبيهِمْ ، وقُرَيْشٌ تُقِرُّ لَهُمْ بذَلِكَ رَاضيَةً مَرْضِيَّةً ..

ولكنَّ بَنِى عَبْدِ مَنَاف بْنِ قُصَىٍّ ، وهَاشِمًا والمُطَّلِبَ ونَوْفَلاً أجْمَعُوا عَلَى أَنْ يأْخُذُوا ما بأَيْدى بَنِى عَبْدِ الدَّارِ مِنَ الحِجَابَةِ واللِّواءِ والسِّقَايَةِ والرِّفَادَةِ ، ورَأَوْا أَنَّهُمْ أَوْلَى بذَلِكَ مِنْهُمْ لِشَرَفِهِمْ عَلَيْهِمْ ، وفَضْلِهِمْ فى قَوْمِهِمْ ..

فلمَّا حَدَثَ ذلكَ تَفَرَّقَتْ قُرَيْشٌ ، وانْقَسَمَتْ إلى ثَلاثِ طَوائفَ ، فكانَتْ طائفَةٌ مِنْهُمْ مَعَ بَنِى عَبْدِ مَنَافٍ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بهذا الشَّرَفِ مِنْ

بَنى عَبْد الدَّارِ لِمكانَتِهِمْ في قَوْمِهِمْ .

وكانَتْ طائفَةٌ مَعَ بَنى عَبْد الدَّارِ ، وكانُوا يَرَوْنَ ألاَّ يُنْزَعَ مِنْهُمْ هذا الشَّرفُ الذى خَصَّهُمْ به قُصَى ..
وكانَ هُناكَ فَريقٌ ثالثٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَيْس مَعَ هؤلاء ولا هَؤُلاءِ .

وعَقَدَ كلُّ فَريقٍ على أمْرِهم حلْفاً مُؤكّداً ، تعاهَدُوا فيه على ألاّ يتخَاذلُوا ، وأنْ يَنْصُرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، وأخْرَج بنو عبْد مَنَاف جفْنَة (وعاء) مملوءة طيباً ، فَوَضَعوهَا لحُلَفَائهم عند الكَعْبَة ، ثُمَّ غمس القَوْمُ أيْدِيَهُمْ فيها ، فتعاقَدُوا وتعاهَدُوا مع حلفائهم .. ثُمَّ مَسَحُوا الْكَعْبَةَ بأيْديهِمْ ، توكيداً عَلى أَنْفُسِهِمْ ، فَسُمُّوا « حِلْفَ الْمُطَيِّبِين » ..

وتَعَاقَدَ بَنُو عبد الدَّار وتعاهَدُوا مع حُلَفائِهِمْ عند الْكَعْبَة ، على أنْ يَنْصُروهُمْ ولا يَخْذُلُوهُمْ ، فَسمُّوا « الأَحْلاَف » ..

ثُمَّ تعبأت القبائلُ من الفريقين ، واستعدَّتْ كُلُّ قبيلةٍ من أحدِ الحلفين لقتالِ قبيلةٍ من الحلفِ الآخرِ ، والإغارةِ عليها . .

وبينما كانَ الجميعُ مُقْدمينَ على الحَرْبِ ، تداعى الفريقان للصُّلْح ، واتَّفقُوا على أنْ يُعْطُوا بنى عَبْد مَنَاف السِّقَايَةَ والرِّفَادَةَ ، وأنْ تكُونَ الحِجَابَةُ واللِّوَاءُ والنَّدْوةُ لبنى عَبْدِ الدَّارِ ففعلوا ، ورضِى كُلٌّ من الفريقين . .

واستمرَّ كلُّ فريقٍ يساندُ حِلْفَهُ ، حتَّى جاءَ الإسْلامُ . .

وبعدَ هذين الحِلْفين ، وقُبيلَ بعثةِ الرَّسُولِ ﷺ نشأَ فى مكَّةَ حِلْفٌ آخرُ سُمِّى باسم «حِلْفِ الفضول» . .

وقصَّةُ حلفِ الفُضولِ ، أنَّهُ لما عمَّ الظُّلْمُ بمكَّةَ ـ بلدِ اللَّهِ الحرامِ ـ فى الجاهليَّةِ ، قَبْلَ ظهورِ الإسلامِ ، دعت بعْضُ قبائلِ من قُرَيْشٍ إلى تكوينِ هذا الحِلْفِ ، فاجتمعوا لذلكَ فى دارِ عبدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ ؛

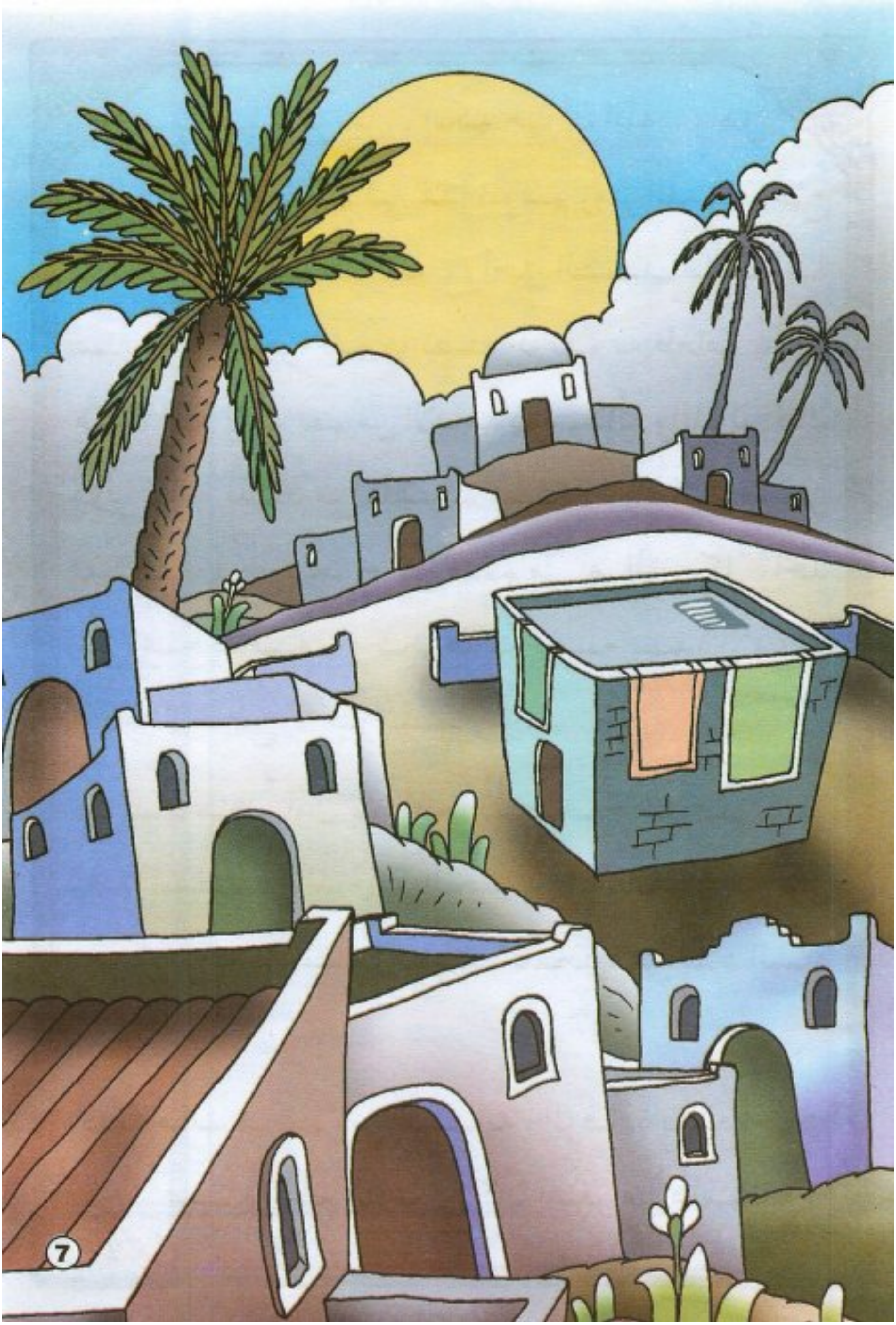
لأنَّهُ كَانَ أَكْبَرهُمْ سِنًّا وأكْثَرهُمْ شَرَفًا ، فَتعَاهَدُوا على أَنْ لا يَجِدُوا بمَكَّةَ مَظْلومًا مِنْ أهْلِها أوْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِها إلاَّ قامُوا مَعَهُ ونصرُوهُ على مَنْ ظَلَمَهُ ، حتى تُرَدَّ إليهِ مَظْلَمَتَهُ ..

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ يَمْدَحُ هذا الحِلْفَ :

«لَقَدْ شَهِدتُ فى دارِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُدْعَانَ حِلْفًا ، مَا أُحِبُّ لوْ أنَّ لى بهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، ولوْ دُعِيتُ إليْهِ فى الإسْلامِ لأَجَبْتُ» ..

أى أَنَّهُ ﷺ لمْ يكُنْ يُحِبُّ نقْضَ هذَا الحِلْفِ ، ولَوْ أُعْطِىَ فى مُقَابِلِ ذَلِكَ حُمْرَ النَّعَمِ ، وهِىَ النُّوقُ الثَّمِينَةُ ..

ولَمَّا تَصَالح بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ وبَنُو عَبْدِ الدَّارِ ولِىَ الرِّفَادَةَ والسِّقَايَةَ هاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ ، فكانَ إذا حَضَرَ مَوْسِمُ الحَجِّ حَثَّ قُرَيْشًا عَلَى جَمْعِ الطَّعامِ للْحُجَّاجِ قائلاً :

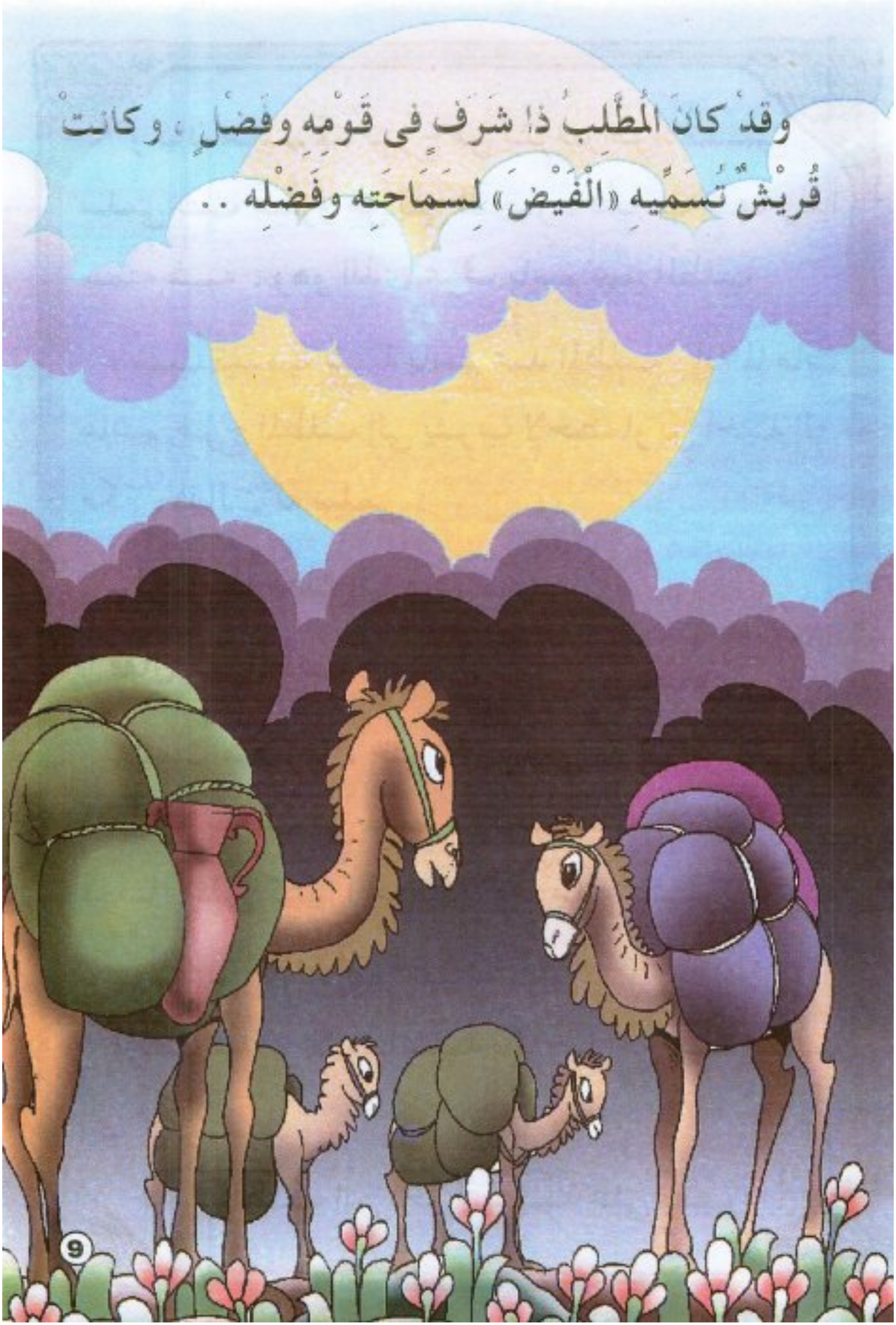


ـ يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنكُمْ جيرانُ اللّهِ ، وأَهْلُ بَيْتِهِ ، وإنهُ يأتيكُمْ فى هذا المَوْسِمِ زُوَّارُ اللّهِ وحُجَّاجُ بَيْتِهِ ، وهم ضَيفُ اللّهِ ، وأحقُّ الضَّيفِ بالكَرَامَةِ ضَيْفُهُ ، فاجْمَعُوا لهم ما تَصْنَعُونَ لهُمْ به طَعَامًا أيَّامَهُمْ هذه ، التى لا بُدَّ لهم من الإقامَةِ بها ، فإنَّهُ واللّهِ لوْ كانَ مالى يَسَعُ لذلكَ ما كَلَّفْتُكُمْ شيْئًا .. وكانَتْ قُرَيشٌ تَسْتَجِيبُ لهُ ، فَيُخرِجُ كُلٌّ منْهُمْ مِن أَمْوالِه ، كُلٌّ واحدٍ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ ، وكانَ هاشم يصنعُ بهذهِ الأَموالِ طَعَامًا للحُجَّاجِ ، حتى ينتهِى مَوْسِمُ الحَجِّ ..

وكانَ هاشِمٌ أَوَّلَ مَنْ أَطْعَمَ الحُجَّاجَ الثَّرِيدَ ، وهو الخُبزُ المُفَتَّتُ فى المَرَقِ أوِ الحَليبِ ، وكانَ أوَّلَ من سَنَّ لِقُرَيْشٍ رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيْفِ للتِّجارَةِ فى بلادِ الشّامِ واليَمَنِ .

فلمَّا ماتَ هَاشِمٌ وَلِىَ السِّقَايَةَ والرِّفَادَةَ بعدَهُ أَخُوها المُطَّلِبُ بنُ عبدِ مَنَافٍ ، وكانَ أصْغَرَ مِن هَاشِمٍ ..

وقدْ كانَ المُطَّلبُ ذا شرَفٍ في قَوْمه وفَضْلٍ ، وكانَتْ قُرَيْش تُسمِّيه «الفَيْضَ» لِسَمَاحَته وفَضْله ..



وكانَ هاشِمٌ قدْ تزوَّجَ مِنْ يثْرِبَ امْرأةً تُسَمَّى سَلْمَى بنْتَ عَمْرو مِنْ بنى النَّجارِ ، فأنْجَبَ مِنْها ولدًا سَمَّتْهُ شَيْبَةَ ، وهوَ الذى عُرِفَ باسْمِ عبْدِ المُطَّلِبِ ..

وسَبَبُ تَسْمِيَةِ شَيْبَةَ باسْمِ عَبْدِ المطَّلبِ ، أَنَّهُ لما ماتَ هاشِمٌ خَرجَ المطَّلبُ إلى يَثْرِبَ لإحْضَارِ بْنِ أخيهِ إلى مَكَّةَ ، فقالَتْ لهُ سَلْمَى :

ـ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكَ إلى مَكَّةَ ..

فقالَ لها المُطَّلبُ :

ـ لسْتُ مُنْصرِفًا ، حتَّى آخُذَهُ معى .. إنَّ ابْنَ أَخى قد بَلَغَ وهو غَريبٌ عَنْ قَوْمِه ، ونَحْنُ أهْلُ بيْتِ شَرَفٍ فى قَوْمِنا ، نَلِى كثيرًا أمْرَهُمْ ، وَقَوْمُهُ وعَشيرتُهُ وبَلَدُهُ خَيْرٌ لهُ مِنَ الإقَامَةِ فى غَيْرِهِمْ ..

فأَذِنَتْ سَلْمَى لابْنِها شَيْبَةَ بالرَّحيلِ مَعَ عَمِّهِ المطَّلِبِ إلى مَكَّةَ ..

حَمَلَ المطَّلبُ ابْنَ أَخيهِ شَيْبَةَ على بَعيرِهِ ،

وَدَخلَ به مَكَّةَ ، فلمَّا رأَتْهُ قُرَيْشٌ ظنَّتْ أَنهُ عَبْدٌ اشْتَرَاهُ المُطَّلبُ ، فقالُوا : عَبْدُ المطَّلبِ .. وسَمَّوْهُ بذلك .. فقال لهُمُ المطَّلِبُ :

ـ وَيْحَكُمْ ! إِنَّما هو ابنُ أخِى هاشِمٍ قَدِمْتُ به مِنْ يَثْربَ .

فلمَّا ماتَ المطَّلبُ ولِىَ عبدُ المطَّلبِ بْنُ هاشِمٍ السِّقايَةَ والرِّفادَةَ بعدَ عَمِّه .. فأقَامهَا للنَّاسِ ، وأَقَامَ لِقَومِهِ ما كَانَ آباؤُهُ يُقيمُونَ قَبْلَهُ ..

وشَرُفَ عبدُ المطَّلبِ فى قَوْمِه شرَفًا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبائه ، وأَحَبَّهُ قَوْمُهُ ، حُبًّا شَدِيدًا ..

وفى ذلكَ الوَقْتِ كانَتْ بِئْرُ زَمْزَمَ ، التى تَفَجَّرَ منْها المْاءُ تحْتَ قَدَمَىِ الصَّغيرِ إِسْمَاعيلَ قَدْ رُدِمَتْ وَنَسِىَ النَّاسُ أَمْرَهَا تمامًا .. رَدَمَتْهَا جُرْهُمُ حينَ طُرِدَتْ مِنْ مَكَّةَ ودَفَنَتْ فيهَا غزَالَىِ الكَعْبَةِ ..

وكانتْ قَدْ حُفِرَتْ فى مَكَّةَ آبارٌ كَثيرَةٌ لِسِقَايَةِ حُجَّاجِ بيْتِ اللَّهِ الحْرامِ ..

وأرادَ اللّهُ (تعالى) الخيرَ بعبدِ المطلب ، بأنْ يكونَ له شرفُ إعادةِ حفرِ بئرِ زمزم ..فبينما كانَ عبْدُ المطّلب نائمًا فى الْكَعْبَة ـ وكانَ من عادته أنْ ينامَ فى حِجْرِ إسْماعيلَ ـ فسمعَ هاتفًا يناديه قائلاً :

ـ احفرْ طيبةَ .

فاستيقظَ عبدُ المطّلبِ متسائِلاً فى دهشةٍ :

ـ وما طيبةُ ؟!

ولكنَّ الْهاتفَ كانَ قد انْصرفَ عنهُ .

فلما كانَ الْيومُ التّالي ذهبَ عبْدُ المطّلب ونامَ فى مكانه ، فسمعَ منْ يناديه قائلاً :

ـ احفرْ برّةَ .

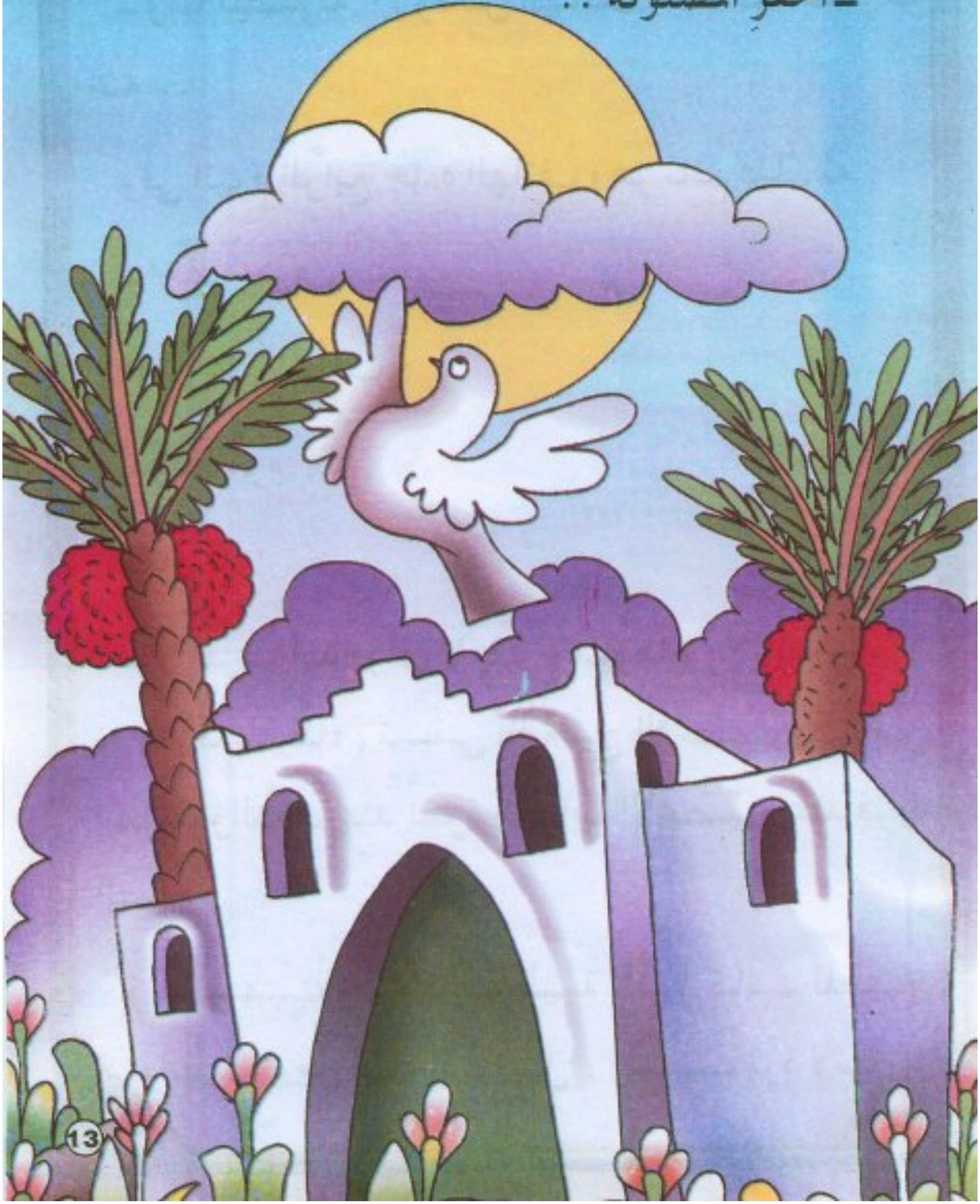
فاستيقظَ عبْدُ المطّلب متسائلاً :

ـ وما برّةُ ؟!

ولكنَّ الْهاتفَ كانَ قد انْصرفَ عنْهُ ..

وفى الْيَوْمِ الثَّالِثِ جاءَهُ الْهاتِفُ قَائِلاً :

ـ احْفُرِ الْمَضْنونَةَ ..



فاسْتَيْقَظَ عبدُ المطَّلِبِ مُتَسائِلاً :

ـ ومَا الْمَضْنُونَةُ ؟! ولكِنَّ الْهاتِفَ كانَ قَدِ انْصَرَفَ عَنْهُ ..

وفى الْيَوْمِ الرَّابِعِ جَاءَه الْهاتِفُ وهوَ نَائِمٌ فقَالَ لهُ :

ـ احْفُرْ زَمْزَمَ ..

فقالَ عبْدُ المطَّلِبِ :

ـ ومَا زَمْزَمُ ؟!

فقالَ له :

ـ لا تَنْزِفُ أبَداً (أىْ لا يَفْرُغُ مَاؤُهَا) ولا تُذَمُّ (أى لا تُوجَدُ قَلِيلَةَ الْماءِ) تَسْقِى الْحَجِيجَ الأَعْظَمَ ، وهِىَ بَيْنَ الْفَرْثِ والدَّمِ ، عِنْدَ نُقْرَةِ الْغُرابِ الأَعْصَمِ ، عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ ..

وقدْ سُمِّيَتْ زَمْزَمُ باسْمِ طِيبَةَ لأَنَّها كانَتْ للطَّيِّبِينَ والطَّيِّباتِ مِنْ أَبْناءِ إِسْماعِيلَ ، وسُمِّيَتْ بَرَّةَ لأَنها

فَاضَتْ عَلَى الأَبْرَارِ وغَاضَتْ عَنِ الْفُجَّارِ ، وسُمِّيَتْ مَضْنُونَةً لأَنَّهَا ضُنَّ بِهَا على غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ فلا يَشْبَعُ مِنْهَا مُنَافِقٌ ..

حَدَّدَ الْهَاتِفُ لِعَبْدِ المطَّلِب الْمَوْضِعَ الذى سَيَحْفُرُ فِيهِ بِئْرَ زَمْزَمَ ، وهو بين صَنَمَيْنِ يُقَالُ لَهُمَا إِسَافٌ وَنَائِلَةٌ ، وكَانَتْ قُرَيْشٌ تَنْحَرُ عِنْدَ هَذَيْنِ الصَّنَمَيْنِ ذَبَائِحَهَا ..

فخَرَجَ عبْدُ المطَّلِب حَامِلاً مِعْوَلَهُ ومَعَهُ ابْنُهُ الحَرْثُ ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ فى ذَلِكَ الْوَقْتِ وَلَدٌ غَيْرُهُ ، وذَهَبَ إِلى الْمَوضِعِ الذى حَدَّدَهُ لهُ الْهَاتِفُ ..

وبَدَأَ عَبْدُ المطَّلِب يَحْفِرُ ، فلمَّا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ يَحْفِرُ قَامُوا إِلَيْهِ ، وحَاوَلُوا مَنْعَهُ مِنَ الْحَفْرِ بين صَنَمَيْهِمُ اللَّذَيْنِ يَنْحَرُونَ عِنْدَهُمَا .. فلمَّا عَرَفُوا أَنَّهُ يَحْفِرُ زَمْزَمَ قَالُوا لَهُ :

ـ إِنَّهَا بِئْرُ أَبِينَا إِسْمَاعِيلَ وإِنَّ لَنَا فِيهَا حَقًّا ، فأَشْرِكْنَا مَعَكَ فِيهَا ..

فقالَ لهمْ عبدُ المطَّلِبِ :

ـ ما أنا بفاعلٍ .. إنَّ هذا الأَمْرَ قدْ خُصِصْتُ به دُونَكُمْ وأُعْطِيتهُ مِن بينِكُمْ ..

وهكذا وقعَ الخِلافُ بينَ عبدِ المطَّلِبِ وقَوْمِهِ ..

(يتبع)

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١١٠٥٠

الترقيم الدولي : ٠ - ٢٨٠ - ٢٦٦ - ٩٧٧



قصص الأنبياء

الكتاب التالى

محمد (صلى الله عليه وسلم)

(٣)

حفر زمزم

احرص على اقتنائه